

استلهام التراث الشعبي في الرواية النسوية الجزائرية
 "السّمك لا يبالى" لـ "إنعام بيوض" - أنموذجاً -

Taking Inspiration From the Folklore in the Algerian feminist novel
 "Fish Do Not Care" To "Inam Bayoudhe" -as a model-

لزهر مساعديّة

مسعودة ضياف *

جامعة عباس لغرور - خنشلة -

جامعة عباس لغرور - خنشلة -

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

antarlazhar@yahoo.fr

Massaoudadiaf12@gmail.com

تاريخ القبول: 2023-12-24

تاريخ الإرسال: 2023-09-20

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن استلهام التراث الشعبي في الرواية النسوية الجزائرية، في سبيل معرفة دوافع استحضار هذا الموروث من خلال رواية "السّمك لا يبالى" لـ "إنعام بيوض"، إذ تراوح توظيف هذا الموروث بين التوظيف المباشر وإعادة البناء لإحداث مراوغة نصيّة تخرج بها من النمطية التقليدية إلى الانفتاح على الأجناس الأخرى بغية إعطاء للنص الروائي قيمة جمالية بحمولاتها الدلالية.

ومن الأشكال الشعبية المستلهمة في رواية "السّمك لا يبالى" نذكر: المثل الشعبي، الأزياء الشعبية، الأطعمة والمشروبات التقليدية، الآثار العمرانية، اللهجات العامية، العادات والتقاليد المعتقدات والطقوس الدينية.

الكلمات المفتاحية: التراث الشعبي؛ الرواية النسوية الجزائرية؛ السّمك لا يبالى؛ إنعام بيوض.

Abstract:

This study seeks to reveal the inspiration of folklore in the Algerian feminist novel, in order to know the motives for evoking this heritage through the novel "Fish Does not Care to Inam Bayoudhe". The use of this heritage ranged from direct employment and reconstruction to create textual evasion that moves it out of the traditional stereotype to openness to other genres in order to give the narrative text an aesthetic value with its semantic loads.

*- المؤلف المراسل

Among the popular forms inspired in the novel "Fish Do Not Care" are: folk proverbs, folk costumes, traditional foods and drinks, urban monuments, colloquial dialects, customs and traditions, religious beliefs and rituals.

Keywords: Folklore; Algerian Feminist Novel; Fish Do Not Care; Inam Bayoudhe.

مقدمة:

تعد الرواية من أبرز الأنواع الأدبية تفاعلا مع الأجناس الأخرى، ولاسيما الرواية النسوية الجزائرية، إذ سعت الروائيات جاهدات للخروج من النمطية الواقعية ودخولهن صرح التجريب الروائي، متخذات منه آلية التراث بوصفه نزعة تأصيلية تهدف لإعادة الاعتبار إلى هذا الموروث وتأصيله وحمايته من الطمس والاندثار، ومن بين أنواع التراث الأكثر استلهاما في المتن الروائي النسوي الجزائري "التراث الشعبي"، إذ وجدن فيه مادة خصبة لما يشمله من قيم إنسانية تمثل هوية الأمة بعاداتها وتقاليدها مستندات في ذلك على مرجعياتهن الفكرية والثقافية. فقد لاءمت الروائيات من هذا التراث ما يناسب موضوع الرواية وشخصياتها وراحت كل منهن تشق طريقها للإمساك بالجانب الوهاج الذي يخدم متنها الروائي، حيث تتعالق فيه الجوانب التراثية بالجمالية من أجل ترجمة الوضع الراهن واختلقت طرق التعامل مع التراث الشعبي من اقتباس وإحياء وتضمين وإحالة.

ورواية "السّمك لا يبالي" "لإنعام بيوض" تصب في هذا السياق، إذ استلهمت من الموروث الشعبي بوصفه مكونا أساسيا في نصها الروائي، بغية الغوص في حمولاته التراثية بطريقة فنية مستوحاة من أبرز أنواعه: المثل الشعبي، الأزياء الشعبية المأكولات التقليدية الآثار العمرانية القديمة، اللهجات العامية، العادات والتقاليد المعتقدات الشعبية، كونها جزء لا يتجزأ من ثقافة المجتمع العربي عامة والجزائري خاصة، ويعود سبب امتزاج البيئات المحلية في الرواية إلى أن الكاتبة "إنعام بيوض" مزدوجة الجنسية فهي من أب جزائري وأم سورية، وهذا ما جعلها تستوعب التراث الشامي والجزائري على حدّ سواء وستحاول هذه الورقة البحثية طرح بعض التساؤلات التي تتعلق بكيفية تعامل الروائية مع هذا الموروث نوجزها فيما يلي:

- كيف تعاملت إنعام بيوض مع التراث الشعبي في روايتها "السّمك لا يبالي"؟ وما الآليات الفنية المعتمدة لإدراك غايات هذا الاستحضار؟
- ما مدى استلهم التراث في رواية "السّمك لا يبالي"؟ وما الأبعاد والدلالات الجديدة التي تكشف عنها الروائية في استلهمها لتراث الشعبي؟

1- دوافع توظيف التراث الشعبي في الرواية النسوية الجزائرية:

ينظر إلى التراث الشعبي على أنه: "يتسع ليشمل كل شيء، العادات والتقاليد والأزياء وطقوس الزواج، والميلاد والسبوع والوفاة والختان والزرع والحصاد والري ونحوها بل يتسع ليشمل سلوكيات الأفراد وحياتهم اليومية وعلاقاتهم بالآخرين وانتقال "الأحوال" من جيل لآخر، بل اتسع ليشمل سلوكيات الأفراد مع أنفسهم فهو ما يتعلق بالحياة من ظواهر، وكل ما يتمسك به جيل ولا يتمسك به"¹، فالتراث الشعبي جامع لكل سلوكيات الطبقات الاجتماعية وعاكسا لثقافتهم لاعتباره مستودع نهل منه ما يخدم أفكارنا وبواعثنا الاجتماعية والحضارية والسلوكية.

استوعبت الرواية النسوية الجزائرية التراث الشعبي بمختلف أشكاله وأعادته استنطاقه لإحيائه والتعريف به، فقد خاضت الروائيات في بيتنهن المحلية بجميع مكوناتها ونسجن من خلالها تفاصيل تجربتهن الروائية متجاوزات بذلك التبعية الغربية والنمطية الواقعية للبحث عن أساليب فنية جديدة تنحو بالرواية منحى التجريب، وذلك بإعادة تشكيل التراث من خلال استحضار أنواع وأشكال شعبية مختلفة، والانفتاح على العديد من الأجناس الأخرى في سبيل الحاجة إلى التجديد والتجديد. وقد حققت الرواية النسوية تجسيرا توفيقيا بين التراث المحلي والقومي، فحفلت بمختلف الثقافات الشعبية للخروج بالرواية النسائية إلى نطاق أوسع من خلال استحضار ثقافة الأخر بغية التعريف بها للقارئ لإثراء رصيده الثقافي.

¹. حلمي يدير، (2002)، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، (د.ط)، دار الوفاء، الإسكندرية، ص 13.

راهننت الروائيات الجزائريات على استحضار التراث الشعبي للتعبير عن الحاضر من خلال الماضي، لما يحمله هذا الموروث من حمولات تعبر عن معاناة المجتمع، ويبدو هذا واضحاً من خلال أعمال: زهرو ونيسي، وأحلام مستغانمي، وفضيلة الفاروق، وربيعة جليطي وعائشة بنور، وإنعام بيوض، وغيرهن من الروائيات اللاتي لم يستطعن التخلص من الخصوصية المحلية للمجتمع الجزائري رُغم عيشهن خارج أرض الوطن سواءً بإرادتهن أم غصباً عليهن فقد اهتممن بالموروث الشعبي المحلي والقومي؛ للتذكير به وحمايته من الاندثار وذلك بإعادة تفكيكه وإنتاجه للاستفادة منه بطرق مختلفة: "فيكون توظيفه أحياناً، بغية العودة بالقارئ إلى استحضار بعض القضايا التراثية، أو لدعم وتوضيح فكرة معينة، كما قد يكون هو المقصود في حد ذاته"².

تسعى الروائيات من خلال توظيف التراث الشعبي إلى نقل واقع المجتمعات الشعبية البسيطة التي تختصر معاناتها في مجموعة من الأمثال الشعبية، أو تداري همومها بأغنية شعبية ترصد من خلال ألقائها و أفراحها وأتراحها، وتوظف المعتقدات الشعبية كالسحر والشعوذة والحسد على لسان شخصيات روائية تكون مؤيدة لها حيناً ورافضة لها أحياناً أخرى، أما عن استحضارهن للأطعمة التقليدية فيكون من أجل التعريف بالأكلات الخاصة بكل منطقة والتي تميزها عن غيرها من المناطق، وتستعين الروائيات بالزي الشعبي بغية الحفاظ عليه من الزوال والاندثار بوصفه أحد مقومات البيئة المحلية، وبهذا وجدن في هذا الموروث المفتاح الأقرب لمعالجة قضايا الواقع العربي عامة والجزائري خاصة وتأكيد عراقته لتقريب التجربة الروائية من القارئ وتحريك المخزون الثقافي في ذاكرة المتلقي.

2- أشكال استلهام التراث الشعبي في رواية "السّمك لا يبالى" لـ "إنعام بيوض":

إن استلهام التراث الشعبي في الرواية النسوية الجزائرية ليس بالأمر الجديد، فقد عمدت الروائيات إلى تأصيل هذا الموروث بطريقة فنية وجمالية، من خلال استنطاقه أو

². عاشور سرقمة، (2015)، استراتيجيات توظيف الموروث الشعبي، مجلة مقاربات، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، ع13، ص20.

استلهم التراث الشعبي في الرواية النسوية الجزائرية "السماك لا يبالى" لـ "إنعام بيوض" - أنموذجا

إعادة استنطاقه مما أسهم في بناء تجربة أدبية نسوية تتميز بالإبداع، وتنتهج سبب التجريب بغية البناء الاستيطقي للشكل الروائي على حساب المضمون، وسوف نتابع فيما يلي أشكال استلهم التراث الشعبي في رواية "السماك لا يبالى" لـ "إنعام بيوض"، لنقف على كيفية اعتراف الساردة من هذا الموروث للاستفادة منه في بنية الرواية:

1.2- الأمثال الشعبية:

يعرف المثل الشعبي على أنه تعبير عن تجربة حياتية للمجتمع، تحمل دلالات ورموز ثقافية متوارثة جيلا عن جيل، وقد وظفته الروائية بغية محاورة النص وتوليد دلالات معاصرة تبرز من خلالها واقع المجتمع الإسلامي المتمسك ببيئته الشعبية، إذ لم تعد الروائية على تراص الأمثال بوصفها جنسا قائما بذاته وإنما: "لتعطي للرواية شكلا عربيا يقترب من طبيعة تفكير الشخصية العربية إضافة إلى دورها المعروف في إيضاح المضمون وإبراز الفكرة"³، من أجل إثراء المضمون الروائي واستكمال المعنى العام للرواية بطريقة مختصرة تبرز من خلالها الروائية واقع البيئة المحلية التي تعيش فيها شخوص روايتها، وقد رصدت لنا الرواية محور الدراسة "السماك لا يبالى" أمثالا شعبية تراوحت بين العامة والفصيحة نذكر منها ما يلي:

"أخذنا القرد على ماله، راح المال وبقي القرد على حاله"⁴؛ ويضرب هذا المثل فيمن يتزوجون طمعا في المال أو الجاه أو الثروة، ولا يراعون الجانب الشكلي لشريك حياتهم، لكن مع زوال هذه النعم يجدون أنفسهم لا يملكون مالا ولا جمالا، ويجري هذا المثل مجرى النصيحة للشباب الذين أضحووا يتزوجون زواج المصلحة نظرا للأوضاع الاقتصادية السائدة في الأوطان العربية، ويهملون مقومات الزواج المتمثلة في الألفة والمحبة والتفاهم.

وفي الرواية توظف "إنعام بيوض" هذا المثل على لسان "مصطفى" الذي أصر عليه والده "أبوسطيف" البخيل أن يتزوج "دولت" طمعا في المال الوفير الذي كان من المفروض

³. حسن علي المخلف، (2010)، التراث والسرد، ط1، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ص130.

⁴. إنعام بيوض، (2004)، السمك لا يبالى، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص18.

أن ترثه من والدها. إلا أنه اتضح بعد موته أنه كان معدما وأنه تم حجز بيته بعد وفاته لتسديد ديونه. ويعود إدراج هذا المثل الشعبي في السياق الروائي إلى أنه يتناسب مع شخصية "أبو سطيف" بما يملكه من صفات الجشع والطمع وبهذا اتخذت الساردة من هذه الشخصية نموذجاً للأفراد الانتهازيين الذين يضحون بأنفسهم وأهاليهم في سبيل الحصول على المال.

"الطمع ضرر ما نفع! الطمع ضرر ما نفع"⁵: يُقال هذا المثل فيمن يسعى وراء أشياء ليست من حقه، فتعود عليه بعدم النفع والخسران. وحتى تكتمل الصورة نورد الأمثال المشابهة له التي قيلت باللغة الفصحى أو العامية نذكر منها: "الطَّمْعُ يَفْسِدُ الطَّبْعُ"، "أطمع من أشعب".

حافظت الروائية على المعنى العام لهذا المثل، والغاية من استحضاره تبيان طمع "أبو علي" الذي أراد من زوجته "أم علي" أن تُخَصِّرَ المخللات مقابل بقائها في منزله، لأنه لا يريد أن يطلقها. ويضرب هذا المثل لإظهار صفات الطَّماع الذي يسعى دائماً إلى الربح السريع وعدم الرضى بنصيبه من الدنيا سيكون مصيره خيبة الأمل، إذ عمدت الروائية إلى استلهاهم هذا المثل الشعبي لإثراء المتن الروائي بأجواء محلية لما يحمله من دلالات ضمنية تتجنب تقرير المواقف وإصدار الأحكام المباشرة.

"الله يعطي العلك للي ماله ضراس"⁶: يستخدم المثل بعدة صيغ وروايات منها: "الله يعطي السواك لأعوج لحناك"، "الفول يروح للي ما عندو أسنانو". ويعني هذا المثل في بعده الواقعي السخرية ممن لديه إمكانيات ضعيفة، وأكرمه الله بمال ورزق وفير.

استلهمت الروائية هذا المثل لتعبر به عن ضجر "أم نور" من عيشها في بيت زوجها فقد أضحت تتحسر على جهاز عرسها الذي دسته ولم تتمتع به، وتمنت لو أنها أحضرت أكياس خيش لحظها السيء، وعلى الرغم من أن هذا المثل فيه مجادلة لله عز وجل لما

⁵. إنعام بيوض، السمك لا يبالي، مرجع سابق، ص 19.

⁶. المرجع نفسه، ص 63.

يحمله دلالات ضمنية تتجلى في الحسد والغبط والسخرية من الآخرين، إلا أنه ظل يجري على لسان الشعوب العربية مجرى الحكمة، وقد انسجم هذا المثل مع السياق الذي قيل فيه مما أضفى على الرواية لمسة فنية وأبعادا دلالية جديدة.

وما يلاحظ في هذه الرواية أن "إنعام بيوض" لم توظف الأمثال الشعبية كحجر أساس في الرواية فقد استحضرتها إما تعليقا عن حدث ما، أو اختصارا لفكرة أو تعميقا لدلالة، مما جعل لغة المثل قريبة من الواقع ومن البيئة المحلية للشخصيات بغية التماثل بين الحاضر والماضي، وهذا ما يدل على انفتاح الروائية على الثقافة العربية المشرقية منها والمغربية؛ لجعل المتلقي يقترب من المضمون الروائي من خلال فهم رسالة المثل الشعبي دون الإخلال بالبناء الفني واللغوي لها.

2.2 - الأزياء الشعبية التقليدية:

تتميز الألبسة الشعبية التقليدية بتنوعها من بلد إلى آخر، إذ تهتم مجتمعاتنا العربية سواء في المشرق أم المغرب بهذا الموروث الشعبي؛ لأنه يعكس حضارة الأمة ويميزها عن غيرها من الأمم فالزي الشعبي يعد: "الإطار الأكثر جاذبية في عملية التمايز بين الشعوب ويمثل صورة عن المجتمع والحياة في هذا البلد أو ذلك ويشكل مرجعا وطنيا لأهل البلد"⁷، وعليه عمدت الروائية إلى توظيف الألبسة التقليدية نظرا لمرجعيتها الثقافية. وقد اخترنا من الألبسة الشعبية ما يميز ثقافة المجتمعات العربية لدى الرجل وأخرى عند المرأة، من خلال ما ألفيناه في رواية "السّمك لا يبالى" فكان الأمر على النحو التالي:

القنباز والطربوش والمعطف: تعد هذه البدلة من أعرق الملابس في المشرق العربي عامة والسوري على وجه الخصوص ترتديها الطبقة المثقفة والثرية، فـ "القنباز" عبارة عن قميص رجالي مخطط بلون رمادي مخصص للكبار والصغار، أما "الطربوش" فهو قبعة يضعها الرجل فوق رأسه ليبين مدى ثرائه وانتمائه إلى الطبقة البورجوازية، وأما "المعطف" فيضيفه ليزيد به رقبيا واحتراما من قبل الآخر. وظفت الروائية هذا اللباس في سياق حديثها عن جدّ "نور" الذي كان يخرج من غرفته: "التي لا يدخلها أحد سوى ابنته، ويحتفظ

⁷. نجوى شكري مؤمن، (2004)، التراث الشعبي للأزياء في الوطن العربي، عالم الكتب، القاهرة، ص21.

بمفتاحها النحاسي الكبير متدليا بسلسلة من لفة حريية يتحزم بها فوق قنبازه الأبيض اليقق. ويلبس معطفه الكحلي الغامق الذي يصل إلى كاحله، ويضع طربوشه الأحمر القاني"⁸، ويعد هذا الزي من أهم الأيقونات التراثية المتوارثة جيلا عن جيل في المشرق العربي للحفاظ عليه من الزوال والاندثار، فاختيار الروائية لهذا اللباس التقليدي لم يكن عفويا وإنما لتأكيد عراقته كونه مؤثر ثقافي يدل قيمة هذا الهندام الرجالي السوري - القنباز والمعطف والطربوش- لدى المجتمع السوري

الملاءة السوداء: تعد الملاءة السوداء من الألبسة النسوية التقليدية القديمة المشهورة في الوطن العربي عامة، تتميز باللون الأسود لتحجب جمال المرأة عن الأعين الرجالية، كما تكون فضفاضة لتستر مفاتها، واحتل هذا الزي مكانة خاصة عند المرأة المسلمة عموما باعتبارها مظهرا من مظاهر الهوية الإسلامية، وتختلف الغاية من استلهاام الملاءة السوداء في الرواية النسوية الجزائرية؛ فهناك من توظفها وتجعل منها تحدي تراثي للعوامة والانفتاح وهناك من تستحضرها بغية السخرية والاستهزاء به، ففي الرواية موضع الدراسة نرى أن الساردة تبدي موقف رفض من هذا اللباس فـ "سميحة" " التي كانت تلبس الملاءة عند خرجاتها الليلية التي أصبحت ترافقها فيها نور في الفترة الأخيرة. كانتا تتسللان كشبحين افتراضيين توشحا بالسواد وبحلقة الليل"⁹

اللباس التلمساني: "الشدة التلمسانية" أو "البلوزة" من أعرق الملابس المحلية الخاصة بمنطقة تلمسان، تعود جذوره إلى ما قبل سقوط الأندلس، كانت ترتديه أميرات تلمسان قديما، وقد خصص هذا اللباس في الوقت الحالي للعرائس، يصنع بأجود أنواع القماش وأفخر الزينة، يحمل بعدا حضاريا وثقافيا للبيئة المحلية الجزائرية، واستحضرت الروائية هذا اللباس حينما وصفت "نور" و "ريما" " وهما تلتقطان زهور الياسمين قائلة:

⁸. إنعام بيوض، السمك لا يبالي، مرجع سابق، ص، ص 16، 17.

⁹. المرجع نفسه، ص65.

استلهم التراث الشعبي في الرواية النسوية الجزائرية "السّمك لا يبالى" لـ "إنعام بيوض" - أنموذجاً
"فتبدوان كعرائس تلمسان بأطواق اللؤلؤ المطروحة بسخاء مخجل فوق صدور قفاطينهن
المطرزة بخيوط الذهب"¹⁰

يعود السبب في تنوع واختلاف الألبسة التقليدية في الرواية ما بين ملابس رجالية ونسائية، وملابس الأعراس والحياة اليومية، وجزائرية وشامية، إلى الحفاظ على هذا الموروث الشعبي والتذكير به، لما يملكه من أهمية كبيرة في الثقافة العربية، وكذلك إعطاء القارئ المعاصر رغبة في البحث عن الهندام التقليدي العربي والأمازيغي على حد السوءاء.

3.2 - الأطعمة والمشروبات التقليدية:

الأطعمة والمشروبات التقليدية واحدة من السياقات الاجتماعية والمؤثرات الثقافية التي ترتبط بالواقع المعيشي للمجتمعات؛ لما تحمله من دلالات تعبر عن خصوصية البيئة المحلية، والغاية من توظيف المأكولات الشعبية في رواية "السّمك لا يبالى" ليس الوصف الداخلي وإنما غايتها: "الوصف الخارجي للأطباق وتصنيفها وصفاً فنياً حسب براعة الكاتب وتخيّل طعمها وطيب رائحتها وتشبهها خير تشبيه"¹¹، وقد تمكنت الساردة من الغوص في أعماق البيئة المحلية للمجتمع السوري والجزائري، من خلال استحضار مجموعة من المأكولات والمشروبات التقليدية نذكر منها:

الكسرة: من أقدم المأكولات التقليدية المتجذرة في الذاكرة الجماعية تختلف طريقة صنعها وكيفية تسميتها من منطقة إلى أخرى، أشارت إليها الروائية كأيقونة تراثية لتقدم لنا من خلالها طقوس تحضيرها ومكوناتها ففي حديثها عن إعجاب "نجم" بـ "نور" وهي تعجن الكسرة: "أمام 'القصة' الخشبية الكبيرة، تدلك عجينةً يتلوّى ويتفرقع بين أناملها كحسنا تطرطق بغنج علكة من طرف فم. نفذت رائحة الخميرة إلى مسامه، وأحسّ بأنه ينتفخ معها/.../ كانت تضغط على تلك الكتلة الطرية بظهر قبضتها جيئةً وذهاباً، ثم تقلبها وتعيد الكرة، ثم ترفعها في الهواء وتتركها تتمطّى في سقوط حربيّ، لتلويها بذلك وتدلّكها

¹⁰. المرجع نفسه، ص 46.

¹¹. إبراهيم شيوخ، (2014/1425)، المائدة في التراث العربي الإسلامي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي،

لندن، ص 25.

من جديء من حين لآخر، ترش فوقها، بنفضات من رؤوس أصابعها، قطرات من الماء كما لتنعشها بعد الإغماء"¹². ونستشف من خلال هذا الاقتباس أن الروائية أرادت التذكير بأكلة

الكسرة لما تحمله من أيقونات ثقافية وشعبية وسط البيئة الجزائرية.

المخللات: من المقبلات التي توضع مع الأطباق الرئيسة في المشرق العربي -خاصة- اتفق جميع النسوة على كيفية إعدادها منذ زمن بعيد، إذ يقمن بتقطيع الخضر كالخيار واللفت والكرنب والباذنجان البصل والليمون... ويضعنها في علب زجاجية، ثم تترك في المجمدات لمدة طويلة، وقد استحضرت الروائية "المخللات" في سياق حديثها عن "أم علي" التي كان يتحاشها زوجها لأنها كثيرة الكلام والطلبات، وبما أنه لا يستطيع طلاقها لأنها يتيمة فراح "يستغلها في تحضير المخللات. وعندما تظهر تبرها مكبوتا أمام أكوام اللفت والفلفل والخضار وتنفته عبر تهيدة يرتفع لها صدرها السمين المتوفر"¹³. يتضح لنا أنّ غاية الساردة من توظيف المخللات داخل السياق السردى هي تعريف القارئ بأنواعها وكيفية تحضيرها وانتمائها إلى المجتمع السوري.

"القهوة بالهيل": "القهوة" من أعرق المشروبات التقليدية التي يفضلها النسوة في جلساتهم، إلا أنه في المشرق العربي يفضلن إضافة "الهيل" إلى "القهوة"؛ وذلك لاحتوائه على فوائد كثيرة كتقوية الجسم، والتخلص من السموم، وقد وظفتها الروائية كأيقونة معرفية وتراثية للتعريف بخصوصية هذا الشراب التقليدي داخل البيئة المحلية الشامية التي تميزها عن غيرها من البلدان الأخرى، في سياق وصفها لحالة "أم نور" التي خرجت من العزلة التي كانت تخيم عليها إذ كانت لا تحب مجالسة النسوة لكن بعد مجيء صديقتها "سميحة" "أصبحت تدعوهم لتناول القهوة بالهيل بعد خروج أزواجهن صباحا"¹⁴

¹². إنعام بيوض، مرجع سابق، ص- ص178- 186.

¹³. إنعام بيوض، السمك لا يبالى، مرجع سابق، ص19.

¹⁴. المرجع نفسه، ص66.

وعليه استلهمت "بيوض" بعض الأطعمة والمشروبات التقليدية لترسيخها في ذهن القارئ والتعريف بها وإعطائها خصوصية ثقافية ومحلية تتميز بها كل منطقة عن الأخرى.

4.2 - الآثار العمرانية القديمة:

استحضرت الساردة مجموعة من الآثار العمرانية القديمة، فصورت لنا من خلالها واقع البيئة المحلية للشخصيات الروائية لما تحمله من دلالات وأبعاد مختلفة، وهذا ما أضفى على الفضاء الروائي جمالية، وأكسبته صبغة تراثية من خلال التخلص من هيمنة الرواية الغربية من جهة. والتأسيس لرواية عربية تساهم - إلى جانب الأنشطة الثقافية الأخرى - في معالجة الواقع ورصد المتغيرات والمستجدات فيه¹⁵. وهذا ما نجده واضحا وجليا في رواية "السّمك لا يبالى"، من خلال استلهم الساردة لمجموعة من الآثار العمرانية نذكر منها:

حي محي الدين ابن العربي "الصالحية": حي "الشيخ محي الدين ابن العربي" أو "الصالحية" من أعرق الأحياء في دمشق، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى شيخ المتصوفة "محي الدين بن العربي"، يضم عدة بيوت قديمة يعود تاريخها إلى عهد الدولة العثمانية. تقول الساردة: "كان بيت جدها إذن، يقع في حي "محي الدين ابن العربي" أو "الصالحية"، أقدم وأعرق الأحياء في دمشق، و المكان الذي اختاره "الأمير عبد القادر الجزائري" ليكون مقر ضريحه"¹⁶ ومن هنا تمكنت الروائية من خلال استحضارها لحي "الصالحية" بوصفه قرينة مكانية دالة على أصالة الأحياء الشعبية الدمشقية، أن تجعل منه محراباً لعلماء المتصوفة كـ "الشيخ محي الدين بن العربي" و"الأمير عبد القادر الجزائري" لتؤكد على عراقية هذا المكان المتجذر في القدم.

¹⁵. محمد رياض وتار، (2002)، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، (د. ط)، منشورات اتحاد

الكتاب العرب، دمشق، ص441.

¹⁶. إنعام بيوض، السّمك لا يبالى، مرجع سابق، ص13.

سوق الحميدية: نالت الأسواق الشعبية الدمشقية نصيبها داخل المتن الروائي، وذلك لاعتبارها مركزاً لتجمع البائعين ووجهة للمشتريين، ومن بين الأسواق التي ذكرتها الروائية "سوق الحميدية" الذي يعد من أشهر الأسواق الشعبية الدمشقية، يتميز باتساع مساحته وشدة جماله يضم العديد من المحلات والمساجد والبيوت الضاربة في القدم، وقد استحضرت الروائية من خلال هذا المقطع السردى واصفة لنا الأجواء داخل السوق ف: "الباعة المتجولون يصيحون على سلعهم بأغانٍ مختلفة، والتجار يقفون أمام دكاكينهم المنارة بمصابيح ملونة يدعون المارة للدخول إلى محلاتهم بكلمات ترحيب حارة، تخالهم يدعون ضيوفاً لزيارتهم واختلاط روائح التوابل والعطور والقهوة والأقمشة الجديدة كادت أن تدوّخها"¹⁷، فالحديث عن الصخب والضجيج ونمط المعيشة وتنوع المحلات في سوق الحميدية كانت غايته التعريف بهذا السوق باعتباره بيئة محلية تراثية تحدد الأجواء الشعبية وسط الأسواق الكبرى في دمشق.

البيت الدمشقي: من أبرز معالم العمارة الدمشقية، يتميز بشدة جماله واتساعه يتألف من "أرض الديار" تتوسطها عادة "نافورة" في جانبها شجرة، و"غرفة الضيوف" أو "أودة الضيوف" تُزين بمجموعة من الأثاث الخشبي المزخرف، و "بيت المونة" وهي غرفة مخصصة لتخزين المأكولات التي يحتاجها النسوة للطهي، وقد أغرقت الرواية في وصف البيت الدمشقي تأكيداً على عراقته تقول: "قادتني صاحبة الصوت إلى فناء مربع تحفّ به النباتات و الورود من كل جانب، انتصب فوق الأضلع الثلاثة للمربع بناء حجري من طابقين، يصل العلوي منهما زوج من السلالم المتوازية ذات درابزين حديدي مخرم بأشكال هندسية"¹⁸، وبهذا جعلت من البيت الدمشقي أحد أهم المرتكزات المكانية في الرواية.

لقد استطاعت الروائية استنطاق المخبوء من خلال استلهاها للأثار العمرانية القديمة فأعطت للقارئ صورة واقعية عن الأماكن التراثية الدمشقية، بوصفها جزء من أجزاء العملية السردية التي تسهم في بناء أحداث الرواية.

¹⁷. إنعام بيوض، السمك لا يبالى، مرجع سابق، ص76.

¹⁸. المرجع نفسه، ص77.

5.2 - اللهجات العامية:

تعد اللهجة العامية من أبرز عناصر الموروث الشعبي التي تكشف الهوية الثقافية للمجتمعات. والمتتبع لرواية "السّمك لا يبالى" يجد أن الساردة أسهبت في إيراد اللهجات المحلية لبيئات متعددة، وجعلت منها أداة فنية للكشف عن الثقافات الشعبية لشخص روايتها باللغة: "ليست وسيلة التواصل والاختبار، وإنما أيضا مجموعة من الأدوار المتبادلة يراهن من خلالها كل متلفظ على تعزيز صورته لدى الآخر، وتغيير معتقداته وتمثلاته"¹⁹، وقد استلهمت الروائية اللهجات العامية بشكل واعٍ، فمزجت بين عدة لهجات عربية داخل السياق الروائي لأجل تحطيم القيود الكلاسيكية التي تجبر كتاب الرواية على أحادية اللغة، وإضفاء واقعية على شخص روايتها وهذا ما نجده من خلال الأمثلة التالية:

¹⁹. محمد الداوي، (2006)، سميائية الكلام الروائي، ط1، المدارس، الدار البيضاء، ص126.

الصفحة	المقطع السردى	اللهجات المستلهمة
63	"مو لابق لهم هالنور. لوجبت كياس خشين كان كثير عليهم يضرب هالحظ المعتر"	اللهجة الشامية
34	"أنا مّي تيتا، بس مثل تيتا. أرجعي نامى، أنا تعبانة. بشوفك بكرة الصبح"	اللهجة اللبنانية
165	"أحضي راسك! هنا مكانش التّقلّاش انتاع أمك. نخسر عليك شمعة وغطار حريرة، وما نشوفكش. صافى؟"	اللهجة المغربية
150	"الدّري ما خصّكش تحللو العين. خاطر ومن بعد يدور عليك وياكلك!"	اللهجة التلمسانية
142	"انت وحدك. دير اللي بغيت، مانسمعش بّرك. بالصّح، يا لو كان نشوفك مع مرا وحد أخرى نقلعلك!"	اللهجة الوهرانية
143	"اسمح لي، جاتني الدوخة".	لهجة الشرق الجزائري

شغلت اللهجات العامية حيزا واسعا في الرواية، فجاءت على لسان شخصيات تؤكد انتماءها لبيئتها المحلية، وهذا ما يدل على موسوعية الروائية الثقافية، وقدرتها الفائقة في انتقاء ألفاظ شعبية متعددة تعكس من خلالها قدرة هذا الجنس الأدبي-الرواية- على استعاب اللغات العامية، وتوظيفها بطريقة فنية وجمالية تخرج بالرواية من النمطية من خلال الانزياح الصوتي والتركيبى والدلالي للغة.

6.2 - العادات والتقاليد:

استلهمت الروائية من العادات والتقاليد ما يخدم منها الروائي؛ ذلك أن العادات والتقاليد مجموعة من الأفعال التي قام بها الأجداد والأسلاف لمدة طويلة، حتى أضحت

ملازمة لهم ولحياتهم اليومية و"تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل والمتعلقة بكيفية السلوك أو القيام بالأفعال".²⁰ وهذا ما أضفى على الرواية صبغة شعبية ومن بين العادات والتقاليد المستلهمة في رواية "السّمك لا يبالى" نستحضر:

عادات يوم الجمعة: تعرض إنعام بيوض عادة يوم الجمعة باعتباره يوم عيد بالنسبة لجميع المسلمين، يستقبلونه بالفرحة، فيغتسلون وينظفون الثياب والمنازل استعداداً لاستقبال الضيوف، فـ "أم نور" التي ظلت ملازمة لهذه العادة منذ زمن طويل أوضحت غير مهتمة بها عند مجيء صديقتها "سميحة" وهذا ورد على لسان "نور" فقد: "تحول يوم الجمعة الذي كان عادة يوم الغسيل والحمام. والأشغال الشاقة إلى يوم محايد"²¹، ومن هنا استعانت الساردة بشخصية "أم نور" كعينة من المجتمع المسلم، الذي يعيش أجواء احتفالية بيوم الجمعة الذي يعرف أيضا بيوم المسلمين، باعتباره مؤشرا ثقافيا يدل على تقديس المسلمين لهويتهم الإسلامية.

التداوي بالأعشاب الطبية: من أبرز العادات المتوارثة عبر الأجيال، يُستعان بها كبديل عن الأدوية الطبية الحديثة، فرغم خطورتها إلا أنه لا يزال هناك أشخاص يلجأون إليها ويقدمونها؛ لاعتبارها موروث معرفي يستعان به لمعالجة مختلف الأمراض بالاعتماد على أعشاب يأتيون بها من الجبال والمغارات، فهذه العادة الشعبية ظهرت في الجاهلية، ولا تزال جذورها راسخة إلى وقتنا الحالي، إلا أنها بدأت تتلاشى تدريجيا مع انزياح التخلف والأمية ففي حديث الساردة عن الداية نجمة التي أنقذت ملوكة من وباء التراخوما فـ: "كانت تأتي كل يوم ومعها قارورة من منقوع الزعتر والنونخة وأعشاب أخرى، ممزوج بالعسل الحروب بعض العقاقير- التي كانت تسميها بأسمائها العبرية- /.../ إلى أن خفت وطأة المرض، وبدأت ملوكة تتماثل للشفاء"²² استحضرت الساردة هذه الطريقة التقليدية القديمة

²⁰. ينظر، محمد علي محمد، (1997)، تاريخ علم الاجتماع الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة،

الجامعة الإسكندرية، ص53.

²¹. المرجع نفسه، ص63.

²². محمد علي محمد، تاريخ علم الاجتماع الرواد والاتجاهات المعاصرة، مرجع سابق، ص-ص 145-146.

لمعالجة مرض التراخوما للتذكير بهذه الوصفة التقليدية التي كانت تُستعمل لمعالجة هذا الوباء.

جهاز العروس: عبارة على مجموعة من التجهيزات التي تقوم بها العروس قبل الدخول إلى بيت زوجها، وقد نالت هذه العادة الشعبية النصيب الوافر في المتن الروائي النسوي لما تحمله من دلالات ثقافية تبين من خلالها الروائيات تمسك النسوة بهذا الموروث الشعبي السائد في مختلف البلدان العربية فعند حديث الساردة عن "نور" التي انهبرت بالتحول الذي طرأ على غرفتها التي طردت منها يوم الإفراج عن "سميحة" فقد: "أخرجت أمها كل جهازها لتزيينها: الستائر الحريرية المطرزة، ومفرش السرير المخرم، والوسائد المشغولة بالإبرة، حتى التفرعة الوردية من الدانتيل الرفيع التي لم تخرجها من الحقيبة الكبيرة منذ زفافها"²³. جعلت الروائية من جهاز العروس إرثاً يحتفظ به من قبل المرأة العربية نظراً لما يحمله من مدلولات فكرية وثقافية مؤثرة في المجتمع النسوي.

7.2 - المعتقدات والطقوس الدينية:

القارئ للنصوص الروائية النسوية العربية عامة والجزائرية خاصة يجد بروز المعتقدات والطقوس الدينية؛ للتعبير عن الاعتقادات التي لا تزال راسخة في مجتمعاتنا العربية - خاصة في المجتمع النسوي - التي تؤمن بالجن والسكر والشعوذة، وزيارة الأولياء الصالحين وتأثير العين الحاسدة، رُغم التطور الذي عرفته البشرية في زمن العولمة والحداثة وتأكيد القرآن الكريم على تحريم هذه المعتقدات. يعرف "حمود العودي" المعتقدات الشعبية قائلاً: "مجموعة المعلومات والمعارف المتراكمة في أذهان الناس عن حياتهم المحيطة بهم وعلاقاتهم ببعضهم البعض، التي تشكل الإطار المرجعي لكل سلوكهم"²⁴، وعليه أشارت

²³. المرجع نفسه، ص 63.

²⁴. حمود العودي، (1997)، دراسة التراث الشعبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص-ص 61-

الروائية "إنعام بيوض" في روايتها "السّمك لا يبالى" إلى مجموعة من المعتقدات والطقوس الدينية من بينها:

قراءة الفنجان: معتقد قراءة الفنجان من أبرز الطقوس المنتشرة في المجتمع النسوي منذ القدم، التي لا تزال راسخة في عقول بعضهن في الوقت الراهن ، ويلجأ النسوة إلى قراءة الفنجان بغية التنبؤ بالمستقبل، إذ تقوم العرافة - قارئة الفنجان - بالتطلع على الترسبات الباقية في فنجان القهوة، وتزعم أنها ترى أشياء لا يمكن معرفتها إلا من خلال هذه القراءة، وقد استحضرت الروائية هذا المعتقد في سياق حديثها عن الداية "أم إلياس" التي تستخدم كل أساليب الدجل والشعوذة من أجل كسب المال فهي: "معروفة أيضا بحذقتها في قراءة الفنجان وفتح "الشدة" أو أوراق اللعب لاستشفاف الغيب وتوضيح رُسيمات المستقبل"²⁵. من هنا تخلص أن الروائية عمدت على جمع أهم المعتقدات التي تعتمدها النسوة لمعرفة مصيرهن في مقطع سردي واحد لتؤكد للقارئ أنها بقيت تتوارث عبر الأجيال على الرغم من عدم صحتها لما تحمله من اعتقادات مزيفة.

الإيمان بالجن والحسد: الجن والحسد من أبرز المعتقدات الشائعة التي لا يمكن نسبها إلى أمة واحدة، وتختلف طريقة محاربة هذين المعتقدين من شخص إلى آخر، ومن فئة إلى أخرى، فهناك من يحاربهما وفق ما جاء في تعاليم الدين الإسلامي - الطبقة المثقفة والواعية - وهناك من يلجأ إلى العديد من الطقوس الشعبية المتوارثة كالبخور والخُمسة - الطبقة البسيطة ومحدودة التفكير - والقارئ للرواية النسوية الجزائرية يدرك أنه لا تكاد تخلو رواية من توظيف هذين المعتقدين تذكر لنا الروائية طريقة فك الحسد عن النفس البشرية من خلال شخصية "أم إلياس" التي كانت "تقوم بتخليص النفوس المسكونة من الجن، ونزع العين عن المحسودين المبتلين، وفك وثائق الأوانس العوانس، ووصل المحيين"²⁶.

²⁵. إنعام بيوض، السمك لا يبالى، مرجع سابق، ص22.

²⁶. المرجع نفسه، ص22.

السحر والشعوذة: من أخطر المعتقدات الشعبية التي ظهرت في المجتمعات البدائية وظلت تسيطر على تفكير وعقلية الشعوب إلى يومنا هذا، إلا أنه مع ظهور الدين الإسلامي وتحريم السحر لاعتباره شركاً بالله تعالى بدأ يتراجع الاهتمام بهذا المعتقد، وأصبح المسلمون يحاربونه بالرقية الشرعية، ومن هنا استلهمت الساردة طريقة سحر البطلة "نور" لتصبح غنية فقد ذهبت بها جدتها إلى الداية "أم إلياس" التي تتقن -حسب اعتقادها- السحر تقول "أخرجت" أم إلياس "عظاية حية من صندوق خشبي مغطى بصينية صدئة، وأمسكت بالمواس، وفصلت بضربة واحدة رأس السحلية عن جسمها أخذ يتحرك بتهيج وكأنه وصل بتيار كهربائي (...). أمسكت بقدم "نور" اليسرى باليمينى، وراحت تقطر على أخمصها وكأحلبها من الدم الفائر الفاتر، الذي أخذ يسيل وكأنه يشق أخاديد في قدمها الصغيرة وينغمس فيها. أطلقت "نور" إثرها صرخة دوت في كل أرجاء "طلعة عروذك"²⁷. إن في استلهاام الروائية لمعتقد السحر والشعوذة تأكيد على تجذر هذه الثقافة الشعبية في أواسط المجتمع النسوي الذي يؤمن بالخرعبلات والاعتقادات الخاطئة والمحرمة، من أجل التخلص من متاعب الحياة وإيماناً بغدٍ أفضل.

خاتمة:

في ختام رحلتنا البحثية حول استلهاام التراث الشعبي في رواية "السماك لا يبالى" "لإنعام بيوض" نستنتج أن:

لم تكن دوافع توظيف التراث الشعبي في الرواية النسوية الجزائرية من أجل استحضار ماضي الشعوب ونمط معيشتها، وإنما لمعالجة قضايا المجتمعات الحاضرة التي لا يمكنها الهروب من هذا الموروث.

²⁷. إنعام بيوض، السمك لا يبالى، مرجع سابق، ص 23.

لقد استطاعت الروائية أن تعطي صورة حية عن مختلف البيئات المحلية ولم تكتف ببيئة واحدة، وهذا يدل على ثراء الروائية الفكري والثقافي، إذ أقحمت روايتها بالتراث الشعبي الجزائري والسوري واللبناني وهذا ما يدل على الثراء الفكري والثقافي لإنعام بيوض.

ركزت الروائية على أهم أشكال التراث الشعبي المادي واللامادي كالأمثال الشعبية الأزياء الشعبية، المأكولات التقليدية، الآثار العمرانية، اللهجات العامية، العادات والتقاليد المعتقدات الدينية لتبين اختلاف النمط المعيشي من بيئة إلى أخرى وبذلك تعرف القارئ على الثقافة الشعبية المشرقية منها والمغربية.

قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم شيوخ، (2014/1425)، المائدة في التراث العربي الإسلامي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن.
- إنعام بيوض، (2004)، السمك لا يبالى، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- حسن علي المخلف، (2010)، التراث والسرد، ط1، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر.
- حلي يدير، (2002)، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، (د.ط)، دار الوفاء، الإسكندرية.
- حمود العودي، (1997)، دراسة التراث الشعبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- عاشور سرقمة، (2015)، استراتيجيات توظيف الموروث الشعبي، مجلة مقاربات، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، ع13.
- محمد الداى، (2006)، سميائية الكلام الروائي، ط1، المدارس، الدار البيضاء.
- محمد رياض وتار، (2002)، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، (د.ط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- محمد علي محمد، (1997)، تاريخ علم الاجتماع الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعة الإسكندرية.
- نجوى شكري مؤمن، (2004)، التراث الشعبي للأزياء في الوطن العربي، عالم الكتب، القاهرة.